الزواجة الصالحة

obeikan.com

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) ﴾ .

[البقرة: ٢٢١].

إن الزواج هو أول شيء في بناء الأسرة والمجتمع، وإذا لم تكن الزوجة مؤمنة، فماذا سوف يحدث؟

إن الأم هي التي تشرف على تربية الأولاد، وإذا كانت مشركة فسوف يتناسب إشرافها على أطفالها مع مستوى عقيدتها الضالة.

ومهمة الأب لن تأتي بوضوح إلا بعد مدة طويلة في حياة الطفل تكون فيها المسائل قد غُرست في الأبناء؛ فإياك أن تكون ذلك الرجل، وإياكِ أن تكوني تلك المرأة، لأن هذا يخل بنظام الأسرة، فعمل الأم مع أولادها وملازمتها لهم يؤثر في أوليات تكوينهم، وفي قيمهم، وأخلاقهم التي تظل عالقة بهم بعد ذلك.

إن ذلك الأمر يبدأ منذ أول لحظة في حياة الطفل أي: منذ أن يبدأ يرى ما حوله ويعي الأشياء، والطفل يقضي سنواته الأولى في حضن أمه، وبعد ذلك يكبر، فيبدأ دور الأب، فإذا كانت الأم مشركة والأب مؤمنًا فإن الإيمان لن يلحقه إلا بعد أن يكون الشر قد أخذ منه وتمكن وتسلط عليه.

ونحن نعرف أن الطفولة في الإنسان هي أطول أعمار الطفولة في كل الكائنات، فهناك طفولة تمكث ساعتين مثل طفولة الذباب، وهناك طفولة تستغرق شهرًا، وأطول طفولة إنما تكون في الإنسان؛ لأن هذه الطفولة

مناسبة للمهمة التى سيقوم بها الإنسان، وكل الطفولات الأخرى لها مهمة سهلة جداً، إنما الإنسان هو الذى ستأتى منه القيم، ولهذا كانت طفولته طويلة، فهى تستمر حتى مرحلة بلوغ الحُلُم.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

[النور: ٥٩].

فكأن الطفل يظل طفلاً حتى يبلغ سن الحلم، فكم سنة - إذن- ستمر على الطفل؟.. وكم سنة سوف يتغذى هذا الطفل من ينابيع الشرك إن كانت أمه مشركة؟

إنها فترة طويلة لا يمكن له بعد ذلك أن يكون مؤمنًا غير مضطرب الملكات.. وإن صلح مثل هذا الإنسان أن يكون مؤمنًا فسيقوم إيمانه على القهر والقسر والولاية للأب، وسيكون مثل هذا الإيمان عملية شكلية ليست مرتكزة ولا معتمدة على أساس صادق.

إن الثمرات التى ينعم الناس بأكلها لا يكون نضجها إلا حين تنضج البذور التى تتكون منها أشجار جديدة، وقبل ذلك تكون مجرد فاكهة فجة ليس لها طعم.

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى هذا الأمر ليحرص الإنسان على استبقاء الثمرة حتى تنضج ويصبح لها بذور.

والمرأة لا تكون ثمرة طيبة إلا إذا أنجبت مثلها ولدًا صالحاً نافعًا.. إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يكون النشء غير مضطرب الإيمان ولذلك يقول: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أى: إياكم أن تنخدعوا بالمعايير الهابطة الفاسدة، وعلى كل منكم أن يأخذحكم الله تعالى:

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ لأن إعجاب الإنسان بالمرأة بصرف النظر عن الإيمان سيكون إعجابًا قصير العمر.

ونحن نعرف أن عمر الاستمتاع بالجمال الحسى للمرأة ـ إن جمعنا لحظاته ـ فلن يزيد مجموعه عن شهر من مجموع سنوات الزواج؛ فكل أسبوع يتم لقاء قد يستغرق دقائق وبعدها يذبل الجمال وتبقى القيم هى المتحكمة، ومن المعروف أن المرأة حين تتزوج ثم يبطىء بها الحمل، يصيبها القلق والتوتر والانزعاج وكذلك أهلها.

ولو كان الرجل قد تزوج امرأته لجمالها ووسامتها وقوامها وعينيها.. إلى آخر ذلك من مظاهر الجمال الحسى، فهذا كله سوف يهدأ ويبرد ويختفى بعد فترة، ثم توجد مقاييس أخرى لاستبقاء الحياة ،وعندما يلتفت إليها الإنسان ولا يجدها؛ يغرق فى الندم، لأنها لم تكن فى باله وقت اختيار الزوجة.

ولذلك تريد المرأة أن تُمكِّن لنفسها بأن يكون عندها ولد لتربط الرجل بها، وحتى يقول المجتمع لزوجها ـ عند حدوث أى خلاف ـ: «عليك أن تتحمل زوجتك من أجل الأولاد»..

فالرجل ـ بعد الزواج ـ يريد قيمًا أخرى غير القيم الحسية التى كانت ناشئة أولاً، ولذلك يحذرنا الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وجاء قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ لأن الإسلام يجبُّ ما قبله فما دامت المرأة قد آمنت فقد انتهت المسألة.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ أى: أن الأمة (الجارية) المسلمة خير وأفضل من الحرة المشركة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أى: ولو أعجبتكم المشركة بجمالها ومالها وحسبها وثقافتها ورشاقتها، وانتبهوا إلى دقة اللفظ القرآنى فى هذا الأمر فقد جاء قول الحق سبحانه وتعالى هنا

بمقاييس الإعجاب الحسى ليلفتنا إلى أننا لا يصح أن نهمل مقاييس خالدة ونأخذ مقاييس فاسدة وزائلة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى فى نفس الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ وهذا هو النظير فى الخطاب، وهو ليس متقابلاً فالحق سبحانه لم يخاطب المؤمنات ألا ينكحن المشركين وإنما قال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ وتلك دقة فى الأداء؛ لأن الرجل له الولاية فى أن يُنكح المرأة التى هو وليُّها.. فيأمره الله تعالى ألا يُزَوِّج ابنته أو أخته ـ أو المرأة الخاضعة لولايته ـ لرجل مشرك. فالشريعة الإسلامية أعطت للرجل المسلم هذا الحق فى الولاية على المرأة، كما أعطته حق القوامة على المرأة، وأوجبت عليه الإنفاق عليها والدفاع عنها ومراعاة حقوقها وحقوق أولادها ـ حتى لو كانت غنية ـ فالرجل هو المسئول عن الإنفاق على زوجته وأولاده منها وعلى جميع متطلبات المنزل والأسرة.

والقاعدة الشرعية تقول: «لا نكاح إلا بولىٍّ» والله سبحانه وتعالى لم يوجه الكلام هنا للنساء؛ لأن المرأة قد تتحكم فيها عاطفتها، ولكن وليها ينظر للأمر من زوايا أخرى تحكم الموقف.

صحيح أننا نستأذن الفتاة البكر عند زواجها لكى نضمن أن عاطفتها لا ترفض هذا الزواج، لكن الأب أو ولى الأمر «الرجل» يقيس المسائل بمقاييس أخرى، فلو تركنا للفتاة مقياسها لتَهَدَّم الزواج بمجرد هدوء العاطفة.

وساعة تأتى المقاييس العقلية الأخرى فلن تجد ذلك الزواج مناسبًا لها فتفشل الحياة الزوجية.

ولذلك يطالبنا الإسلام أن نستشير المرأة، كى لا نزوجها رجلاً، وهى له كارهة، فالزواج ينبغى أن يقوم على المودة والرحمة والألفة.

ولكن الذى يُزوِّجها هو أبوها أو أخوها أو ولى أمرها؛ لأن الولى هنا له مقاييس عقلية وخُلقية واجتماعية قد لا تنظر إليها الفتاة وقد لا تنتبه إلى أهميتها فى الحياة، لأن العاطفة قد تطغى على العقل فتحجب عنه الإطار السليم للحكم على الأمور، وهذا أمر معروف ومنتشر بين الناس فى مجتمعنا، فقد تنبهر الفتاة بشاب بسبب حسن شكله وقوامه وجاذبية حديثه، لكن عندما تدخل المسألة فى حركة الحياة ومشاكلها قد تجده إنسانًا غير جدير بها.

ولكى تكون المسألة مزيجًا من «**عاطفة البنت، وعقل الأب، وخبرة الأم**» كان لابد من استشارة الفتاة، وأن يستنير الأب برأى الأم؛ ثم يقول الأب رأيه أخيرًا، وكل زواج يأتى بهذا الأسلوب هو زواج ناجح ويحالفه التوفيق والفلاح لأن المعايير كلها مشتركة، ولا يوجد معيار قد اختل؛ فالأب بنى حكمًا على أساس موافقة ابنته، أما إذا رفضت الفتاة ـ حتى لو كانت معايير الأب صحيحة ورأيه صائبًا ـ فلا يصح أن يتم الزواج فى هذه الحالة، ما دامت الفتاة لا تتقبل الزواج من ذلك الرجل الذى تقدم للزواج منها، فمن حقها القبول أو الرفض، ولا يجوز لوليها إرغامها على الزواج من شخص تكرهه أو لا تريد الزواج منه.

وكثير من الزيجات قد فشلت لأننا لم نجد من يطبق منهج الله فى الدخول إلى الزواج، وحين لا يطبق البعض منهج الله فى الدخول إلى الزواج ثم يفشل الزواج.. هنا فقط يصرخون ويطلبون من قواعد الإسلام أن تنقذهم.

نقول لهؤلاء: وهل دخلتم إلى مسألة الزواج على دين الله؟! إنكم ما دمتم قد دخلتم إلى الزواج بأفكاركم البعيدة عن منهج الله فيجب عليكم أن تحلوا المشاكل التى قد تحدث ـ بأفكاركم وعقولكم فأنتم قد

احتكمتم إلى غير دين الله من البداية، فلا تطلبوا منه أن ينقذكم فى النهاية، فالدين ليس مسئولاً إلا عمن يدخل إلى الأمور بمقاييس الدين ومقاييس منهج رب العالمين الذى شرعه للناس أجمعين.

لكن أن تدخل إلى مسألة الزواج بغير مقاييس الله ثم تريد من الله تعالى أو من القائمين على أمر الدين أن يحلوا لك المشاكل؛ فذلك ظلم منك لنفسك وللقائمين على أمر الدين.

ولو كانت هذه المشكلات لم تحدث لكنا قد اتهمنا منهج الله وقلنا: «قد تركنا منهج الله وسعدنا فى حياتنا»..

ولذلك كان لابد أن تقع هذه المشكلات.

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ** ﴾ هذه قضية لها سبب، لكن العبرة فيها بعموم موضوعها لا بخصوص سببها، لقد كان السبب فيها هو ما رُوِىَ أنه كان هناك صحابى اسمه مرثد بن أبى مرثد الغنوى بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين، وكان يهوى امرأة فى الجاهلية اسمها «عناق» وكانت تحبه، وساعة رأته أرادت أن تخلو به فقال لها: ويحك إن الإسلام قد حال بيننا، فقالت له: تزوجنى، فقال لها: أتزوجك لكن بعد أن أستأمر وأستأذن النبىَّ ﷺ، فلما استأمره نزل قول الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ** ﴾ .

وقيل إن قوله تعالى: ﴿ **وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ** ﴾ نزل فى خنساء وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان، فقال لها حذيفة: يا خنساء قد ذكرت فى الملأ الأعلى مع سوادك ودمامتك وأنزل الله ذكرك فى كتابه، فأعتقها حذيفة وتزوجها.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾. إن المقاييس واحدة فى اختيار شريك الحياة، إنها الرغبة فى بناء الحياة الأسرية على أساس من الخير، وغاية كل شىء هى التى تحدد قيمته، وليست الوسيلة هى التى تحدد قيمة الشىء، فقد تسير فى سبيل وطريق خطر وغايته فيها خير، وقد تسير فى سبيل مفروش بالورود والرياحين وغايته شر، ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. والذين يدعون إلى النار هم أهل الشرك. أما الله تعالى فهو يدعو إلى الجنة، والمغفرة تأتى بإذن الله أى: بتيسير الله وتوفيقه، ونعرف جميعًا الحكمة التى قالها الإمام «على» كرم الله وجهه: لا خير فى خير بعده النار، ولا شر فى شر بعده الجنة.

وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يأتى كثيرًا، هذا التذكر ماذا يفعل؟ إن التذكر يُشعرك بأن القضية كانت معلومة والغفلة هى التى طرأت، لكن الغفلة إذا تنبهت إليها، فهى تذكرك ما كنت قد نسيته من قبل. لكن إن طالت الغفلة، ونسى الأصل فهذه هى الطامة، التى تنطمس بها المسألة.

إذن: فالتذكر يشمل مرحلتين

المرحلة الأولى: أن تعرف إن لم تكن تعرف، أو تعلم إن كنت تجهل.

والمرحلة الثانية: هى أن تتذكر إن كنت ناسيًا، أو توائم بين ما تعلم وبين ما تعمل؛ فالتذكر يوحى لك بأن توائم ما بين معرفتك وسلوكك حتى لا تقع فى الجهل، والجهل معناه أن تعلم ما يناقض الحقيقة، لقد أراد الله سبحانه أن يصون الإنسان الذى اختار الإيمان عندما حرم عليه الزواج بواحدة من أهل الشرك.

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن لمن جعله خليفة فى الأرض

عقيدة واحدة يصدر عنها السلوك الإنسانى؛ لأن العقائد إن توزعت حسب الأهواء فسيتوزع السلوك حسب الأهواء. وحين يتوزع السلوك تتعاند حركة الحياة ولا تتساند.

فيريد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن وحدة العقيدة بدون مؤثر يؤثر فيها؛ فشرط فى بناء اللبنة الأولى للأسرة ألاّ ينكح مؤمن مشركة؛ لأن المشركة فى مثل هذه الحالة ستتولى حضانة الطفل لمدة طويلة هى ـ كما قلنا ـ أطول أعمار الطفولة فى الكائن الحى. ولو كان الأب مؤمنًا والأم مشركة فالأب سيكون مشغولاً بحركة الحياة فتتأصل عن طريق الأم معظم القيم التى تتناقض مع الإيمان.

وأراد الحق سبحانه وتعالى أيضاً ألا تتزوج المؤمنة مشركًا؛ لأنها بحكم زواجها من مشرك ستنتقل إليه وإلى بيئته المشركة وإلى أسرته، وسينشأ طفلها الوليد فى بيئة شركية فتتأصل فيه الأشياء القيمية التى تناقض الإيمان. ويريد الحق سبحانه وتعالى بهذه الصيانة، أى: بعدم زواج المؤمن من مشركة، وبعدم زواج المؤمنة من مشرك، أن يحمى الحاضن الأول للطفولة. وحين يحمى الحاضن الأول للطفولة يكون الينبوع الأول الذى يصدر عنه تربية عقيدة الطفل ينبوعاً واحداً، فلا يتذبذب بين عقائد متعددة. لذلك جاء قول الحق سبحانه:

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) ﴾ .

[البقرة: ٢٢١].

كل ذلك حتى يصون الحق سبحانه لبيئة التى ينشأ فيها الوليد الجديد،

وعلينا أن نفهم أن الحق سبحانه وتعالى رَخَّصَ للمؤمنين فى أن ينكحوا أهل الكتاب بقوله الحق:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾.

[المائدة: ٥].

وقد وقف العلماء من مسألة ترخيص الحق للمؤمنين فى أن يتزوجوا من أهل الكتاب موقفين:

الموقف الأول: هو موقف مانع؛ لأن بعض العلماء رأى أن أهل الكتاب قد ينحرفون فى معتقداتهم إلى ما يجعلهم فى الشرك، وقالوا: وهل هناك شرك أكثر من أن تُدَّعى الربوبية لبشر؟.

والموقف الثانى: أجاز بعض العلماء أن يتزوج الإنسان من كتابية ويجب عليه أن يسألها أهى تدين بألوهية أحد من البشر أم تدين بالله الواحد القهار؟ فإن كانت المسألة مجرد الخلاف فى الرسول فالأمر يهون، أما إن كانت تؤمن بألوهية أحد من البشر بجانب الله فقد دخلت فى الشرك وعلى المؤمن أن يحتاط.

وإذا كان للرجل الولاية وله أن يتزوج بكتابية فهو غالبًا ما ينقلها إلى بيئته هو وستكون البيئة المؤثرة واحدة، ووجود الولاية للأب مع الوجود فى البيئة الإيمانية سيؤثر ويخفف من تأثير الأم الكتابية على أولادها، وإن كان على الإنسان أن يتيقظ إلى أنّ هناك مسالك تتلطف رتتسلل ناحية الشرك، فمن الخير أن يبتعد المسلم عن ذلك، وأن يتزوج ويعصم ويعفّ فتاة مسلمة.

وحين يحمى الحق سبحانه وتعالى الحاضنة الأولى للطفل فهو يريد أن يربى فى الطفل عدم التوزع، وعدم التمزق، وعدم التنافر بين ملكاته، وحين نضمن للطفل الوجود والنشأة فى بيئة متآلفة فهو ينشأ طفلاً سوياً، والإسلام يريد أن يحافظ على سويَّة هذا الطفل، ويقول بعض الناس: ولماذا لا نوجد محاضن جماعية؟ وكأنهم بذلك يريدون أن يحلوا الإشكال.

نقول لهم: إن الإشكال لم يحل عند الذين فعلوا ذلك من قبلنا، ولذلك فعندما نقرأ مؤلفاتهم مثل كتاب «أطفال بلا أسر» فسنجد أن الطفولة عندهم معذبة. ولماذا نذهب بعيداً؟ إننا عندما نتتبع كيفية النشأة الجماعية للأطفال فى إسرائيل فالبحوث العلمية تؤكد على أن الأطفال يعيشون فى بؤس رهيب لدرجة أن التبول اللا إرادى ينتشر بينهم حتى سن الشباب.

وكيف يغيب عن بالنا أن الطفل يظل حتى تصل سنه إلى عامين أو أكثر وهو يطلب ألا يشاركه فى أمه أحد، حتى وإن كان أخًا له فهو يغار منه فما بالك بأطفال متعددين تقوم امرأة ليست أمهم برعايتهم؟ ولا يغنى عن حنان الأم حنانُ مائة مربية؛ فليس للمربيات جميعاً قلب الأم التى ولدت الطفل، فالحنان الذى تعطيه الأم ليس حنانًا شكلياً ولا وظيفياً، ولكنه طبيعة حياة خلقها الله لتعطى العطاء الصحيح، لذلك لابد من إعطاء الطفل فترة يشعر فيها بأن أمه التى ولدته له وحده، ولا يشاركه فيها أحد حتى لو كان أخًال له، وتمر عليه فترة بعد أن يخرج من مهد الطفولة الأولى إلى الشارع ليجد حركة الحياة، ويجد القائمين على حركة الحياة هم الرجال وآباء أمثاله من الأطفال فيجب بعد ذلك أن يُنسب إلى أب له كيان معروف فى المجتمع الخارجى.

فمن مقومات تكوين الطفل أن يشعر أن له أمّاً لا يشاركه فيها أحد،

وأنّ له أبًا لا يشاركه فيه أحد، وإن شاركه فيهما أحدٌ فهم إخوته ويضمهم ويشملهم جميعاً حنان الأم ورعاية الأب، لقد اعترف أهل العلم بتربية الأطفال أن احتياج الطفل لأمه هو احتياج أساسى للتربية لمدة عامين وبضعة من الشهور، والحق تبارك وتعالى حين أنزل على رسوله ﷺ قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا من الآن؛ القول الحكيم الصادق بيَّن هذه الحقيقة واضحة فى أجلى صورها:

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

[الأحقاف: ١٥].

إن الأم هى الحاضنة الطبيعية للطفل كما أرادها الحق سبحانه، إذن: فالحق تبارك وتعالى يريد أن يحمى اللبنة الأولى فى تكوين المجتمع وهى الأسرة فى البناء العَقَدى من أن تتأثر بالشرك، ويريد أن يحفظ للأسرة كيانًا سليمًا.

ويعالج الحق سبحانه بعد ذلك قضية التواصل مع المرأة أثناء فترة الحيض فيأتى التشريع ليقنن هذه المسألة لأن الإسلام جاء وفى الجو الاجتماعى تياران:

تيار يرى أن الحائض هى امرأة تعانى من قذارة، لذلك لا يمكن للزوج أن يأكل معها أو يسكن معها أو يعاشرها أو يعيش معها فى بيت واحد وكذلك أبناؤه.

وتيار آخر يرى المرأة فى فترة الحيض امرأة عادية لا فرق بينها وبين كوها غير حائض أى: تباشر حياتها الزوجية مع زوجها دون تحوط

أو تحفظ، كان الحال ـ إذن ـ متأرجحاً بين الإفراط والتفريط، فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه المسألة فيقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾.

[البقرة: ٢٢٢].

حين تقرأ «هو أذى» فقد أخذت الحكم ممن يُؤْمَنُ على الأحكام، ولا تناقش المسألة، ومهما قال الطب من تفسيرات وتعليلات وأسباب نَقُلْ له: لا، الذى خلق قال: «هو أذى». والمحيض يطلق على الدم، ويراد به ـ أيضاً ـ مكان الحيض، ويراد به زمان الحيض.

وقول الحق سبحانه عن المحيض إنه أذى يهيِّىء الذهن لأن يتلقى حكماً فى هذا الأذى، وبذلك يستعد الذهن للحظر الذى سيأتى به الحكم، وقد جاء الحكم بالحظر والمنع بعد أن سبقت حيثيته.

إن الحق سبحانه وتعالى- وهو الخالق- أراد أن تكون عملية الحيض فى المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها وحياة الإنجاب، وأمر الرجال أن يعتزلوا النساء وهن حوائض؛ لأن المحيض أذى لهم، لكن هل دم الحيض أذى للرجال أم للنساء؟ إنه أذى للرجال والنساء معاً؛ لأن الآية أطلقت الأذى، ولم تحدد من المقصود به.

والذى يدل على ذلك أن الحيض يعطى قذارة للرجل فى مكان حساس هو موضع الإنزال عنده، فإذا وصلت إليه الميكروبات تصيبه بأمراض خطيرة.

والذى يحدث أن الحق سبحانه قد خلق رحم المرأة وفى مبيضيها عدد محدد معروف له وحده -سبحانه وتعالى- من البويضات، وعندما يفرز

أحد المبيضين البويضة فقد لا يتم تلقيح البويضة، فإن بطانة الرحم المكون من أنسجة دموية تقل فيها نسبة الهرمونات التى كانت تثبت بطانة الرحم، وعندما تقل نسبة الهرمونات يحدث الحيض.

والحيض هو دم يحتوى على أنسجة غير حية، وتصبح منطقة المهبل والرحم فى حالة تهيج، لأن منطقة المهبل والرحم حساسة جداً لنمو الميكروبات المسببة للالتهابات سواء للمرأة، أم للرجل إنْ جامع زوجته فى فترة الحيض، والحيض يصيب المرأة بأذى فى قوتها وجسدها؛ بدليل أن الله سبحانه رَخَّصَ لها ألاّ تصوم وألاّ تصلى فى هذه الحالة.

إذن: فالمسألة منهكة ومتعبة لها، فلا يجوز أن يرهقها الرجل بأكثر مما هى عليه.

إذن: فقوله تعالى: «هو أذى» تعميم بأن الأذى يصيب الرجل والمرأة، وبعد ذلك بيّن الحق الأعلى سبحانه أن كلمة «أذى» حيثية تتطلب حكماً يأتى، إما بالإباحة وإما بالحظر، وما دام هو أذى فلابد أن يكون حظراً.

يقول الحق عز وجل: ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ والذى يقول: إنّ المحيض هو مكان الحيض يبنى قوله بأن المحرم هو المباشرة الجنسية، لكن ما فوق السرة وما فوق الملابس فهو مباح، فقول الحق سبحانه: « وَلا تَقْرَبُوهُنَّ » أى: لا تأتوهن فى المكان الذى يأتى منه الأذى وهو دم الحيض. ﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾. و« يَطْهُرْنَ»: من الطّهور، مصدر طَهَر يطهر، وعندما نتأمل قوله. ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ نجد أنه لم يقل: «فإذا طهرن»، فما الفرق بين «طهر» و «تطهر»؟

إنّ كلمة «يطهرن» معناها: امتنع عنهن الحيض، و«تطهرن» يعنى:

اغتسلن من الحيض؛ ولذلك نشأ خلاف بين العلماء، هل بمجرد انتهاء مدة الحيض وانقطاع الدم يمكن أن يباشر الرجل زوجته، أم لابد من الانتظار حتى تتطهر المرأة بالاغتسال؟.

وخروجاً من الخلاف نقول: إن قول الحق تعالى: «تطهرن» يعنى: اغتسلن فلا مباشرة قبل الاغتسال، ومن عجائب ألفاظ القرآن أن الكلمات تؤثر فى استنباط الحكم، ومثال ذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ .

[الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩].

ما المقصود إذن؟ هل المقصود أن القرآن لا يمسكه إلا الملائكة الذين طهرهم الله من الخبث، أو أن للبشر أيضاً حق الإمساك بالمصحف لأنهم يتطهرون؟ بعض العلماء قال: إن المسألة لابد أن ندخلها فى عموم الطهارة، فيكون معنى ﴿ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أى: الذين طهرهم مَن شرع لهم التطهير؛ ولذلك فالمسلم حين يغتسل أو يتوضأ يكون قد حدث له أمران: التطهر ،والطهر.

فالتطهر بالفعل هو الوضوء أو الاغتسال، والطهر بتشريع الله، فكما أن الله تعالى طهر الملائكة أصلاً فقد طهرنا معشر الإنس تشريعاً، وبذلك نفهم الآية على إطلاقها ونرفع الخلاف، وقول الحق سبحانه : ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أى: حتى يأذن الله لهن بالطهر، ثم يغتسلن استجابة لتشريع الله لهن بالتطهر ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعنى :فى الأماكن الحلال.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ وأراد الحق تبارك وتعالى أن يدخل عليك أنساً، فكما أنه طلب منك أن تتطهر مادياً فهو سبحانه قبل أيضًا منك أن تتطهر معنوياً بالتوبة، لذلك جاء بالأمر حسياً ومعنوياً،

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بحكم جديد، هذا الحكم ينهى إشكالاً أثاره اليهود.

وقد كان اليهود يثيرون أن الرجل إذا أتى امرأته من خلف ولو فى قُبلها ـ بضم القاف ـ جاء الولد أحول. و«القُبل» هو مكان الإتيان، وليس معناه الإتيان فى الدبر والعياذ بالله كما كان يفعل قوم لوط. ولمّا كان هذا الإشكال الذى أثاره اليهود لا أساس له من الصحة فقد أراد الحق تعالى أن يرد على هذه المسألة فقال:

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

[البقرة: ٢٢٣].

ن الحق سبحانه وتعالى يفسح المجال للتمتع للرجل والمرأة على أى وجه من الأوجه شريطة أن يتم الإتيان فى محل الإنبات، وقد جاء الحق بكلمة «حرث» هنا ليبيِّن أن الحرث يكون فى مكان الإنبات. «فأتوا حرثكم» وما هو الحرث؟ الحرث مكان استنبات النبات، وقد قال تعالى:

﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾.

[البقرة: ٢٠٥].

فأتوا المرأة فى مكان الزرع، زرع الولد، أما المكان الذى لا ينبت منه الولد فلا تقربوه، وبعض الناس فهموا خطأ أن قوله: «فأتوا حرثكم أنَّى شئتم» معناها: إتيان المرأة فى أى مكان، وذلك خطأ؛ لأن قوله سبحانه: «نساؤكم حرث لكم» يعنى: محل استنبات الزرع، والزرع بالنسبة للمرأة والرجل هو الولد، فَأْتِها فى المكان الذى ينجب الولد على أى جهة شئت.

ويقول الحق سبحانه: «وقَدِّموا لأنفسكم» أى: إياك أن تأخذ المسألة

على أنها استمتاع جنسى فحسب، إنما يريد الحق سبحانه وتعالى- بهذه اللذة الجنسية - أن يحمى متاعب ما ينشأ من هذه اللذة؛ لأن الذرية التى ستأتى من أثر اللقاء الجنسى سيكون لها متاعب وتكاليف، فلو لم يربطها الله سبحانه وتعالى بهذه اللذة لزهد الناس فى الجماع.

ومن هنا يربط الحق سبحانه وتعالى بين كدح الآباء وشقائهم فى تربية أولادهم بلذة الشهوة الجنسية حتى يضمن بقاء النوع الإنسانى، ومع هذا يحذرنا الحق سبحانه أن نعتبر هذه اللذة الجنسية هى الأصل فى إتيان النساء فقال: «وقدموا لأنفسكم»، يعنى: انظروا جيداً إلى هذه المسألة على ألا تكون هى الغاية، بل هى وسيلة، فلا تقلبوا الوسيلة إلى الغاية، «وقدموا لأنفسكم» أى: ادخروا لأنفسكم شيئاً ينفعكم فى الأيام المقبلة.

إذن :فالأصل فى العملية الجنسية الإنجاب. «وقدموا لأنفسكم» أى: لا تأخذوا المتاع اللحظى العاجل على أنه هو الغاية، بل خذوه لما هو آت. وكيف نقدم لأنفسنا؟ أو ماذا نفعل حتى لا نشقى بمن يأتى؟ عليك أن تتبين هذه العملية فقدم لنفسك شيئاً يريحك، وافعل ما علمنا رسول الله ﷺ.. ساعة تأتى لهذه النعمة وتقترب من زوجتك لابد أن تسمى الله وتقول: «**اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى**»، وعندما يأتى المسلم أهله وينشأ وليده فلن يكون للشيطان عليه دخل. وقال بعض العلماء: لا يمكن أن يؤثر فيه سحر، لماذا كل ذلك؟

لأنك ساعة استنبتَّه أى: زرعته، ذكرتَ المُنْبِتَ وهو الله عز وجل، وما دمت ذكرت المنبت الخلاّق فقد جعلت لابنك حصانة أبدية، وعلى عكس ذلك ينشأ الطفل الذى ينسى والده الدعاء إلى الله عندما يباشر أهله فيقع أولاده فريسة للشياطين.

«وقدموا لأنفسكم» أى: قدموا لها ما يريحكم وما يطيل أمد حياتكم

وأعمالكم فى الحياة؛ لأنك عندما تقبل على المسألة بنية إنجاب الولد، وتذكر الله وتستعيذ من الشيطان فينعم عليك الخالق سبحانه بالولد الصالح، هذا الولد يدعو لك، ويعلِّم أولاده أن يدعوا لك، وأولاد أولاده يدعون لك، وتظل المسألة مسلسلة فلا ينقطع عملك إلى أن تقوم الساعة، وهنا تكون قدمت لنفسك أفضل ما يكون التقديم.

وهَبْ أنك رُزقت المولود ثم مات ففجعت به واسترجعت واحتسبته عند ربك، إنك تكون قد قدمته، ليغلق عليك باباً من أبواب النيران، إذن: فكل أمر لابد أن تذكر فيه «وقدموا لأنفسكم».

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معنى «اتقوا الله» أى: إياكم أن تغضبوا ربكم فى أى عمل من هذه الأعمال، وكن أيها المسلم فى هذه التقوى على يقين من أنك ملاقى الله سبحانه وتعالى، ولا تشك فى هذا اللقاء أبداً، وما دمت ستتقى الله وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يبق لك إلا أن تُبشَّر بالجنة، وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

[البقرة: ٢٢٤].

وفى الآية ثلاثة أشياء:

أولاً: أن تبروا، أى: أن تفعلوا البر، والبر قد يكرهه الإنسان لأنه شاق على النفس.

ثانياً: أن تتقوا، أى: أن تتجنبوا المعاصى، والتقوى تكون أيضاً شاقة فى بعض الأحيان.

ثالثاً: أن تصلحوا بين الناس، أى: أن تصلحوا ذات البيْن وقد يكون فى الإصلاح بين الناس مئونة وذلك بعد أن تمتنعوا أن تجعلوا الله عُرضة للقسم.

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿ **وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ** ﴾ فالعرضة هى الحجاب، وهى ما يعترض بين شيئين، «وعرضة» هى ـ أيضاً ـ الأمر الصالح لكل شىء، فيقال: «فلان عرضة لكل المهمات» أى: صالح لها. والعرضة ـ كما عرفنا ـ هى ما اعترض بين شيئين، كأن يضع الإنسان يده على عينيه فلا يرى الضوء، هنا تكون اليد «عُرضة» بين عينى الإنسان والشمس، إن الإنسان يحجب بذلك عن نفسه الضوء.

كأن الحق سبحانه يقول: «أنا لا أريد أن تجعلوا اليمين عرضة بين الإنسان وفعل الخير والبر والتقوى». فعندما يطلب منك واحد أن تبر من أساء إليك فقد تقول: «أنا أقسمت ألا أبر هذا الإنسان» إنك بذلك جعلت اليمين بالله مانعًا بينك وبين البر.

ويريد الحق سبحانه بذلك القول أن ينبهنا إلى أن القسم به لا يجوز فى منع البر أو صلة الرحم أو إصلاح بين الناس.. ومن حلف على شىء فرأى غيره خيراً منه فليفعل الخير وليكفِّرْ عن يمينه، لماذا؟ لأن المؤمن عندما يحلف على ألا يفعل خيراً فهو يضع الله مانعًا بينه وبين الخير، وبذلك يكون قد ناقض المؤمن نفسه بأن جعل المانع هو الحلف بالله، إن الله تعالى هو صاحب الأمر بالبر والتقوى والإصلاح بين الناس، لذلك فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ **وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ** ﴾ أى: أن الحق سبحانه يريد أن يحمى عمليات البر والتقوى والإصلاح بين الناس.

إنك إن حلفت أيها المؤمن ألا تفعل الخير فالحق سبحانه يريد لك أن تحنث فى هذا القسم وأن تفعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس حتى

لا تتناقض مع تشريع الله، ونحن عندما نجد المجتمع وقد صنع فيه كل فرد البر، واتقى فيه كل إنسان المعاصى، ورأى فيه كل إنسان نزاعًا بين جماعتين فأصلح هذا النزاع، أليس هذا دخولاً فى السلم كافة، إذن: فالحق سبحانه يريد أن يستبقى للناس ينابيع الخير وألا يسدّوها أمام أنفسهم.

إن الحق تعالى هو الآمر بألا يجعل المؤمن اليمين مانعًا بين الإنسان والبر، أو بين الإنسان والتقوى، أو بين الإنسان والإصلاح بين الناس، ويتساهل الإسلام فى مسألة التراجع والحنث فى البر فيقول السلف الصلح: «لا حنث خير من البر». إذن: فالمجتمع الذى فيه صنع البر، وتقوى المعاصى، والصلح بين المتخاصمين يدخل فى إطار:

﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ .

[البقرة : ٢٠٨].

والإنسان قد يتعلل بأى سبب حتى يبتعد عن البر أو التقوى أو الإصلاح بين الناس، بل يعمل شيئًا يريحه ويخلع عليه أنه ممتثل لأمر الله، ولنضرب لذلك مثلاً : سيدنا أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ بعد أن جاء مسطح بن أثاثة واشترك مع من خاضوا فى الإفك الذى اتهموا فيه أم لمؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها.

وخلاصة الأمر أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ زوجة رسول الله ﷺ، كانت قد خرجت مع الرسول الكريم ﷺ فى غزوة «بنى المصطلق» وكان الأمر بالحجاب قد نزل، لذلك خرجت عائشة رضى الله عنها فى هودج.

وقام الرسول ﷺ بغزوته وحان وقت العودة، وفقدت عائشة عقدًا لها، وكانت ـ رضى الله عنها ـ خفيفة الوزن؛ لأن الطعام فى تلك الأيام كان قليلاً، راحت عائشة ـ رضى الله عنها ـ تبحث عن عقدها المفقود، وعندما

حملوا هودج عائشة ـ رضى الله عنها ـ لم يفطنوا أن عائشة ليست فيه، ووجدت عائشة عقدها المفقود، وكان جيش رسول الله قد ابتعد عنها، وظنت أنهم سيفتقدونها فيرجعوا إليها، وكان خلف الجيش صفوان بن المعطل السلمى وعرفته عائشة وأناخ راحلته وعادت عائشة إلى المدينة، ودار حديث الإفك بوساطة عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول رأس النفاق.

وكان الغم والحزن يصيبان السيدة عائشة طوال مدة كبيرة وبيِّن الحق كذب هذا الحديث. وذاع ما ذاع عن أم المؤمنين عائشة وهى زوجة رسول الله ﷺ قبل أن تكون بنت أبى بكر، وأبو بكر صديق رسول الله ﷺ ولو أن غير عائشة حدث لها ما حدث لعائشة لكان موقف أبى بكر هو موقفه عندما جاء قريبه مسطح بن أثاثة واشترك فى حديث الإفك مع من اشتركوا ثم يبرئ الله سبحانه وتعالى عائشة وينزل القول الكريم الذى يثبت براءة أم المؤمنين فى حديث الإفك، وحين يبرئها الله سبحانه يأتى أبو بكر وكان ينفق على مسطح فيقطع عنه النفقة ويقول: «والله لا أنفق عليه أبدًا» لماذا؟ لأنه اشترك فى حديث الإفك، والمسألة فى ظاهرها ورع.

لذلك سيمتنع عن النفقة على مسطح بن أثاثة لأن مسطحًا خاض فى الإفك، لكن انظر إلى مقاييس الكمال والجمال والفضائل عند الله سبحانه فقد بيَّن الحق تبارك وتعالى أن هذا طريق، وذاك طريق آخر، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾.

[النور: ٢٢].

فإذا كنت تحب أن يغفر الله لك، أفلا تغفر لمن فعل معك سيئة؟

وما دمت تريد أن يغفر الله لك فاغفرْ للناس خطأهم، قالها الحق عز وجل لأبى بكر؛ لأنه وقف موقفًا من رجل خاض فى الإفك مع من خاض ومع ذلك يبلغه أن ذلك لا يصح.

وقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا** ﴾ لا تقل: إنى حلفت بالله على ألاّ أفعل ذلك الخير، لا. افعلْه فالله سبحانه يرضى لك أن تحنث وتكفِّر عن يمينك.

﴿ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾. إن الله عز وجل يبلغنا: أنا لا أريد أن تجعلوا الحلف بى عُرضة، يعنى: حاجزًا أو مانعًا عن فعل الخير، مثلاً لو طُلب منك أن تبر شخصًا أساء إليك فلا تقل: حلفت ألا أبرّ به لأنه لا يستحق، عندها تكون قد جعلت اليمين بالله مانعًا للبر. وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لك: لا، أنا متجاوز عن اليمين بى؛ إن حلفتِ ألا تبر أو لا تتقى أو لا تصل رحمًا أو لا تصلح بين اثنين، أنا تسامحت فى اليمين.

والحديث: يقول: «**مَنْ حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير وليكفِّرْ عن يمينه**» وهكذا يحمى الحق سبحانه وتعالى فعل البر ويحمى التقوى ويحمى عمليات الإصلاح بين الناس، ولو كنت قد حلفت بالله ألا تفعلها، لماذا؟ لأنك عندما تحلف بالله ألا تفعل، وتجعل الله سبحانه وتعالى هو المانع، فقد ناقضت التشريع نفسه؛ لأن الله تعالى هو الآمر بالبر والإصلاح والتقوى، فلا تجعل يمين البشر مانعاً من تنفيذ منهج رب البشر.

﴿ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ إن حلفت على ترك واجب وجب أن ترجع فى اليمين، احنثْ فيه وكفِّرْ عنه، والحكم نفسه يسرى على الذى يمنع ممتلكاته كالدابة أو الماكينة أو

السيارة من انتفاع الناس بها بحجة أنه حلف ألا يعيرها لأحد، وذلك أمر يحدث كثيراً فى الأرياف.

ويختم الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم: «والله سميع عليم». إنه سبحانه سميع باليمين الذى حلفته، وعليم بنيتك إن كانت خيراً أم شراً فلا تتخذ اليمين حجة لأن تمنع البر والتقوى والإصلاح. والحق سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن اليمين يعطينا أصلاً من أصول اعتبار اليمين هل هو يمين حقاً أم لغو، ومن رحمة الله أنه سبحانه وتعالى لم يأخذ إلا باليمين الذى عُقد القلب عليه، أى: الذى يقصد صاحبه ألا يحنث فيه، أما لغو اليمين فقد تجاوز الله عنه.

مثلاً: الأيمان الدارجة على ألسنة الناس كقولهم: «والله لو لم تفعل كذا لفعلت معك كذا»، «والله سأزورك»، «والله ما كان قصدى» أو الحلف بناءً على الظن؛ كأن تحلف بقولك: «والله حدث هذا» وأنت غير متأكد من تمام حدوثه، لكن ليس فى مقصدك الكذب.

أما اليمين الغموس فهى الحلف والقسم الذى تعرف كذبه وتحلف بعكس ما تعرف، كأن تكون قد شاهدت واحداً يسرق أو يقتل وتحلف بالله أنه لم يسرق أو لم يقتل، من أجل ذلك كله يحسم الله سبحانه وتعالى هذه القضية بقوله:

﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾.

[البقرة: ٢٢٥].

وكان من المناسب أن تأتى هذه الآية بعد كل ما سبق لأنه سبحانه بيَّن لنا اليمين التى لا تقع وكأنه قال لنا: ارجعوا فيها واحنثوا وسأقبل رجوعكم فى مقابل أن تبروا وتتقوا وتصلحوا، فإذا كان قد قبل تراجعنا

عن هذا اليمين فلأن له مقابلاً فى فعل الخير، وقول الحق سبحانه: «بما كسبت قلوبكم» هو المعنى نفسه لقوله تعالى:

﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾ .

[المائدة: ٨٩].

أى: الشىء المعقود فى النفس والذى رسخ داخل نفسك، لكن الشىء الذى يمر على اللسان فلا يؤاخذنا الله به. «لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» والأيمان جمع يمين، واليمين: هو الحلف أو القسم، وسمى يميناً؛ لأنهم كانوا قديمًا إذا تحالفوا ضرب كل امْرِئٍ منهم يمينه على يمين صاحبه، وذلك لأن اليمين هى الجارحة الفاعلة.

وبالمناسبة، فالجارحة الفاعلة إياك أن تظن أنها تفعل بالرياضة والتدريب، وإنما هى تفعل بالخلق أى: كما خلقها الله، فهى مجبرة على الفعل حسب خلقتها.

ولذلك عندما تجد إنساناً ويده اليمنى لا تعمل ويزاول أعماله بيده اليسرى فلا تحاول أن تجعله يستخدم اليمنى بدلاً من اليسرى؛ لأن محاولتك عبث لن يجدى؛ لأن السبب فى أنه يستخدم اليسرى بدلاً من اليمنى سبب خلقى، فالجهاز الخاص بالتحكم فى الحركة فى المخ هو الذى يقرُّ هذا الأمر.

لذلك تجد الذى يكتب بيده اليسرى يتقن الكتابة بها أفضل من الذى يكتب باليمنى فى بعض الأحيان، ومن هنا نقول: إنه من الخطأ أن تحاول تغيير سلوك الذى يعمل بيده اليسرى بدلاً من اليمنى؛ لأن ذلك عبث لن يصل لنتيجة.

وأحياناً تجد الجهاز المتحكم فى حركة اليدين موجوداً فى منتصف ووسط المخ فيرسل حركات متوازنة لليد اليمنى واليد اليسرى معاً، ولذلك

تجد شخصاً يكتب بيديه اليمنى واليسرى معاً بالسرعة نفسها وبالإتقان نفسه، ويؤدى بهما الأعمال بتلقائية عادية، ولله فى خلقه شئون، فهو يعطينا الدليل على أنه لا تحكمه قواعد، فهو سبحانه قادر على أن يجعل اليد اليمنى تعمل، وقادر على أن يجعل اليد اليسرى تعمل، أو يجعلهما يعملان معاً بالقوة نفسها، أو يجعل كلتا اليدين غير قابلتين للعمل، إنها ليست عملية آلية خارجة عن إرادة الله، بل كل شىء خاضع لإرادته سبحانه.

«لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» المقصود به الحلف، والحلف من معانيه التقوية، وهى مأخوذة من الحِلْف، وهو أن يتحالف الناس على عمل ما، ونحن عندما نتحالف على عمل فنحن نقسِّم العمل بيننا، وعندما نفعل ذلك يسهل علينا جميعاً أن نفعله.

«لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم» والكسب عملية إرادية، لأنك ساعة تقسم بالله دون أن تقصد فهو لا يؤاخذك، وهذا دليل على أن الله سبحانه واسع حليم.